

الباب الرابع
مركز المسؤولية الإنسانية
بين المشيئتين القديمة والحديثة

وفيه ستة فصول :

الفصل الأول : المشيئة الإلهية وأثرها على الإنسان
في نعمة الاختيار الحر .

الفصل الثاني : مناقشة الاعتذار بالقدر والمشيئة
والاحتمالات الرئيسية بين المشيئتين .

الفصل الثالث : المشيئة الإلهية وخواتيم العمل .

الفصل الرابع : وضوح الاعتبارات المختلفة

لإطلاق كلمة المشيئة في القرآن .

الفصل الخامس : النهي عن الكلام في القدر

الفصل الأول

المشيئة الإلهية

وأثرها على الإنسان في نعمة الاختيار الحر

فيما مضى من حديث كان تركيز النصوص قوياً على حرية الإنسان واختياره ، وربما يخطر بالبال أننا هنا سنتحيز لحرية الإنسان في مقابلة المشيئة العليا ، ونعوذ بالله سبحانه من ذلك ، وحاشانا أن نفعله ؛ لأننا لو فعلنا فقد هلكنا ، فضلاً عن أننا نكون قد أهدرنا تماماً حرية الإنسان نفسه حين نقطعها عن موجدتها وواهبها ، وماذا يصبح لنعمة الحرية في الإنسان من بقاء إذا نحن عزلناها عن مصدر وجودها وبقائها وامتدادها ؟

وإذن فالتحيز الواعي لحرية الإنسان هو في التحيز لمشيئة الله أولاً وآخرًا . أليس الاختيار الحر في الإنسان مخلوقاً لله سبحانه كسائر خلقه ؟ .

فكيف لا يكون أمراً بدهياً هيمنة المشيئة العليا على كل ما في الوجود ؟ .

قضية مفتعلت :

هذا الصراع الذى تورط فيه بعض الذين عالجوا قضية الجبر والاختيار ، أو التيسير والتيسير في السؤال المشهور عن الإنسان : هل مخير أم مسير ؟ حين وضعوا مشيئة الله سبحانه وجهاً لوجه أمام مشيئة عباده ، هذا الصراع المفتعل لم يكن له من داع أو مسوغ ، إذ كيف يمكن المقابلة بين علم الله القديم وبين علم مخلوقه ، أو بين قدرته وقدرتهم ومشيتته ومشيتهم ؟

إن القاعدة الاعتقادية التى يتوقف عليها الإيمان ، ويعرفها السواد الأعظم من أمة الإسلام تقول بكلمة الوحي : « ليس كمثله شئ » ، وهو السميع البصير » ومنها كانت القاعدة المعروفة : كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك .

أو ليست صفات المولى سبحانه كذاته ، أي ليس كمثلها صفات ؟

ونحن إذا انطلقنا من الذات العليا وصفاتها إلى آثار المشيئة في الخلق ، أمكننا أن نلمس الفوارق المذهلة بين آثار عمل مشيئة الله سبحانه وبين آثار المشيئة الحادثة ، إننا نريد أن نقرب إلى الأذهان عن طريق الآثار ، هو ما نملك النظر فيه ، أن عمل المشيئة الربانية ليس كمثله عمل لمشيئة الحوادث ، بمعنى أنه لا يجوز أن يتخيل أحد ، أن مشيئة العبد عندما تتوجه لاختيار ما ، فإنها ستجد مشيئة الله في انتظارها تعترض طريقها وتصارعها حتى تصرعها ليبقى الإنسان مغلولاً بلا مشيئة .

إن هذا التصور عقيم لا يتأتى إلا من ساذج المعرفة بصفات الله القديمة وتنزهها عن مثل العوارض التي لا تكون إلا بين مشيئتين حادثتين .

وإذا انتهينا إلى هذه النتيجة ، فما هو دور المشيئة الربانية إذن في الحرية الإنسانية ، خاصة في اختيارها ومشيئتها ؟

ولمعرفة الجواب سنلتزم بأمرين :

أولهما : أن نستلهم النصوص القرآنية التي وردت مركزة على مشيئة الله سبحانه .

ثم التي وردت مركزة على مشيئة الإنسان .

ثم التي جمعت الحديث عن المشيئتين معاً .

فتلك التي أرسى وقررت القاعدة النهائية في هذه القضية ، مع الاستعانة بالسنة في جزئيات الموضوع .

ثانيهما : أن نتقيد فيما وراء الغيب بالنص القرآني أو النبوي ، على أن نستعمل في الإيضاح التمثيل بآثار المشيئة في الحوادث المنظورة والملموسة ، وفي نهاية عرض نصوص القرآن والسنة والتمثيل بالآثار ، سنحاول بيان الخطر المفروض على الخوض في القدر والمشيئة من جانب البشر ، ولماذا كان ذلك من هدى الإسلام ؟

المجموعة الأولى : التي ركزت على مشيئة الله سبحانه :

تتضح في هذه الآيات اتجاهات يجب أن تستقر في عقيدة كل مؤمن ، عن هيمنة المشيئة الإلهية وتأثيرها المطلق في هداية الخلق إلى الخير أو إلى غير ذلك .

- ١- قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦ خَمَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٦ - ٧] .
- ٢ - وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٤١] .

- ٣ - وقال تعالى : ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًا أَبْوَلًا يَقُولُوا يَبَاحٌ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥]

- ٤ - وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] .

- ٥ - وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصاص: ٥٦] .

- ٦ - وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلَّ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨] .

نظرة في هذه الآيات :

إن هذه الآيات - وأمثالها في القرآن كثير - تعطينا للوهلة الأولى عند النظر إليها

الاعتقاد اليقيني في أن دور المشيئة الربانية في الهداية الإنسانية دور أساسي ، بيد أن هذا الانطباع - عند التأمل - لا يمنع إضافة معان جديدة يتكامل بها فقه الموضوع ، ومع إعجاز النصوص في أداء دورها كاملاً في عقيدة المسلم نحو مشيئة الله سبحانه ، غير أنها من نواح أخرى نجدها في سياق محكم معجز يراعى بقية المعاني التي تبرزها الآيات الأخرى عن مشيئة الإنسان ، أو عن استيعاب المشيئة الربانية للمشيئة الإنسانية ، ولنلق نظرة سريعة على هذه الآيات .

الآية الأولى : قررت أن الإنسان هو الذي بدأ باختيار الكفر ، كما هي صيغة الفعل الماضي : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، فكان جزاؤهم على هذا الكفر الذي حرصوا عليه وأدمنوه هو عدم استفادتهم من إنذار الرسول كما أن هذا التقرير كان مواساة لرسول الله ﷺ وإشفاقاً عليه .

في هذا المعنى روى على بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال : كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من أنه السعادة في الذكر الأول ، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول^(١) .

هذا وقد ذكر ابن كثير بعض الآثار الأخرى ثم قال : والمروى عن ابن عباس في رواية على بن أبي طلحة أظهر ، ويفسر ببقية الآيات التي في معناها .

وفي معنى مجازاتهم على كفرهم بالхتم وعدم الاستفادة بالإنذار ، قال القرطبي : وأجمعت الأمة على أن الله ﷻ قد وصف نفسه بالхتم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال : ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ ، وإذا كان القرطبي قد نقل هذا

(١) تفسير ابن كثير أوائل سورة البقرة .

الإجماع^(١)، فمعنى ذلك أن الانطباع الأساسى أو الرئيسى الذى تنطبع به النفس عن المشيئة عند قراءة الآية لم يمنع الأمة من ملاحظة اعتبارات خاصة بمشيئة الإنسان تحظى بدرجة الإجماع عليها أيا كان المقصود بهذا الإجماع، وأيا كانت درجته.

موقف السنة:

في الحديث الصحيح الذى أورده القرطبى وابن كثير عن حذيفة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا^(٢) ».

قال ابن جرير: والحق عندى فى ذلك ما صح بنظيره الخبر، عن أبى هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: « إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه، فإن تاب ونزع واستعجب صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذى قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٣) ».

ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ « أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص، فذلك هو الختم والطبع الذى ذكره فى قوله

(١) تفسير القرطبى وغيره أوائل سورة البقرة.

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ وأحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه والترمذى.

(٣) هذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذى والنسائى عن قتيبة والليث بن سعد وابن ماجه عن هشام بن عمار عن حاتم ابن اسماعيل والوليد ابن مسلم، ثلاثهم عن محمد بن عجلان، وقال الترمذى: حسن صحيح.

تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ .

إن هذا المنهاج في تفسير آيتي سورة البقرة ، يمكن تطبيقه في كل النصوص القرآنية التي جاءت على هذا النحو ، وسنطبقه في تفسير الآية الواحدة والأربعين من سورة المائدة ، والخامسة والعشرين من سورة الأنعام اللتين أسلفنا ذكرهما ، ونترك قياس باقي النصوص المشابهة عليهما .

آية المائدة :

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ قُلُوبَهُمْ ﴾ هذا النص جزء من الآية ، فإذا قرأنا الآية من أولها تبين لنا أن إبراز دور المشيئة الإلهية لم يمنع من النص في صدر الآية على سلوك الإنسان الذي استحق من أجله عقوبة الفتنة وفساد القلوب ، وها صدر الآية الكريمة : ﴿ يَتَأْتِيَهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ [المائدة: ٤١] ، وهنا إضافتان في منتهى الأهمية :

أولهما : أن أعمال الكافرين بلغت مرحلة مستفحلة تسببت في حزن الرسول ﷺ مما حدى بالوحي أن يطلب إليه ﷺ الرفق بنفسه بترك الأحزان .

ثانيهما : وصف الكافرين بالمسارعة في الكفر ، وفي كلمة ﴿ يُسْكِرُونَ ﴾ من الدلالة ما فيها على الاندفاع في الضلال إغراقاً منهم في البعد عن الإيمان ، وهذه الإضافة والتي قبلها إنما كانت نتيجة اختيارهم وإصرارهم .

ثم يأتي جزء من الآية بعد ذلك يضيف شيئاً آخر يصف عمل فريق من هؤلاء المسارعين في الكفر ، يقول تعالى فيه : ﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا أَمَنَّا بِقَوْلِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ ، فهم يسارعون في الكفر خفية ، بينما يظهرون الإيمان خديعة وهذا باطن

مشين ، وسلوك خطر .

ويأتى بعد ذلك فى الآية الكريمة جزء جديد عن الفريق الثانى من هؤلاء ، يبين فوق مسارعتهم فى الكفر طائفة من الأعمال السيئة التى اختاروها فىقول تعالى : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ سَكَّعُوا لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوا بِحُجُجٍ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ فهذه أوصاف أربعة خبيثة : الكذب ، والتأمر مع العدو ، والتحريف فى كلام الله عن سوء قصد ، وتغليب الهوى على الوحي ، والإصرار على ذلك كله فى عناد ومكابرة .

وقد وصفوا فى صدر الآية التالية بأنهم : ﴿سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسُّخْتِ﴾ [المائدة: ٤٢] ، وهى أوصاف على أوزان المبالغة والاستمرار . من هنا كان جزاؤهم بما يستحقون إنصافاً وعدلاً وحكمة ، من جنس ما قدموه لأنفسهم ، لقد كانوا يسارعون إلى معانى الضلال والكفر والفتنة فكان جزاؤهم أن تغلب عليهم محبة الفتن وأجوائها : ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أليس ذلك حصاد ما غرسوه بأيديهم من الإصرار على جو الكذب والمسارة حتى اعتادوها وألفوها .

ثم أليس قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ﴾ ، عقاباً متجانساً ، وجزاء وفاقاً لفساد قلوبهم حين قالوا : ﴿أَمَتْنَا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ ، فاختاروا وارتضوا وآثروا رجس الكفر والحقد والهوى والخديعة على طهارة الإيمان والصدق والإسلام .

والخلاصة : أن إعجاز القرآن فى هذه الآية الكريمة قدم الانطباع العام من حيث الاعتقاد المطلق فى مشيئة الله مع الحفاظ على المعانى الرئيسة الأخرى ذات العلاقة

وأما بعدها فقوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦] .

وإننا واجدون في هذا السياق المواقف التالية :

- ١- أنهم عرفوا القرآن كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك كفروا به مكابرين معاندين .
 - ٢- أنهم افتروا على الله الكذب وكانوا من الظالمين .
 - ٣- وأنهم عرفوا القرآن عن طريق الكتب السابقة وعن طريق استماعهم للنبي ﷺ ومع ذلك لم يؤمنوا .
 - ٤- وأنهم لا يتأثرون بالآيات الكثيرة والحجج المتعددة . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها .
 - ٥- وأنهم ينهون غيرهم عن الإيمان وينأون بأنفسهم عن ذلك .
- ومن هنا كان جزاؤهم وعقابهم من جنس أعمالهم هذه ، فكان نفس الجزاء من أوصافهم وامتدادا طبيعيا لأعمالهم ، وفق القاعدة العامة في صلة مشيئة الله سبحانه بكل مخلوقاته حيث يكون الجزاء مرحلة متطورة من أطوارهم التي ارتضوها وسعوا إليها ، واحتالوا كل حيلة للحفاظ عليها بكل أنواع المكر والدهاء ، وصدق الله العظيم : ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣] .

المجموعة الثانية :

الآيات التي تركز على مشيئة العباد :

هذه الآيات يغلب عليها طابع التركيز على مشيئة العباد ، والسياق العام لهذه الآيات يوضح - غالبا - الطريقتين الحسن والسئ ويبين آثارهما ونتائجهما ، ثم يدع أمر الاختيار لمشيئة الإنسان ، ويشتمل هذا الأسلوب عادة على معنى لتهديد والوعيد ، وهذا التهديد ينفي التخيير الشرعى بمعنى الإباحة ، أى ينفى أن يستوى

طرفا الفعل الممكن فعلا وتركيا ، ولكنه لا ينفى بحال التخيير الواقعي والفعل في فطرة المشيئة الإنسانية وطبيعتها ، وهذه بعض الآيات نسوقها دون تعليق أو شرح ، حيث كان التعليق والشرح على مجموعة الآيات الماضية منصبا في الواقع على معاني هذه الآيات بحكم أنه كان توضيحا لجوانب مشيئة الإنسان التي روعيت حين الحديث عن مشيئة الله سبحانه ؛ ولذلك فمع إعادة النظر للأحاديث النبوية أو الآثار وآراء المفسرين في مجموعة الآيات السابقة نجد أنها شرح لصلب موضوع الآيات الآتية :

١ - قال تعالى : ﴿ وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ (٢٧) وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿ ٢٨ ﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف: ٢٧ - ٢٩] .

وينبغي التركيز في التأمل على المعاني الآتية :

(أ) تأثير الصحبة الصالحة والأمر بلزومها والبعد عن قرناء السوء ، وفي هذا تأثر وتأثير إنساني ، يتعلق بالمشيئة والاختيار في الإنسان ، خوطينا فيه بالأمر والنهي إعمالا لهذه المشيئة واستثارة لها .

(ب) أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، وفيه إبراز رعاية المشيئة الإلهية .

(ج) واتبع هواه وكان أمره فرطا ، وفيه رعاية إبراز المشيئة الإنسانية .

(د) فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وفيه رعاية إبراز المشيئة الإنسانية أيها إبراز ، وكون التخيير على سبيل التهديد يؤكد إيجابية المشيئة الإنسانية في تحمل تبعة اختيارها السيء ولا ينفيه .

٢ - وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَقُولُونَ إِن كُفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۚ ﴾ [السماء: ١٧] السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۚ ﴾ [١٨] إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۚ ﴾ [الزمر: ١٧- ١٩] .

٣ - وقال تعالى : ﴿ نَذِيرٌ لِلْبَشَرِ ۚ ﴾ [١٩] لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۚ ﴾ [٢٠] كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ۚ ﴾ [المدر: ٣٦- ٣٨]

٤ - وقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ۚ ﴾ [٢١] فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ۚ ﴾ [المدر: ٥٤- ٥٥] .

٥ - وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا ۚ ﴾ [النبا: ٣٩] .

هذه خمس آيات أبرزت حرية المشيئة الإنسانية في تحديد مسيرتها نحو السبيل الذي تبغيه ، ومن السهل أن نلاحظ أن هذه النصوص كسابقتها لم يمنعها إبراز مشيئة الإنسان من أن تكون هذه المشيئة في الإطار الحق الذي يراعى الاعتبارات الخاصة بالقاعدة الأساس في ضرورة خضوعها لمشيئة الله سبحانه ، فهي التي اقتضت أن تكون مشيئة العباد بهذه القدرات ، ومفطورة على نعمة الاستطاعة والاختيار كي تكون أهلا لحمل أمانة التكليف والقيام برسالة الدين .

ومما يبرز مشيئة الإنسان أيما إبراز ، تهديد الله سبحانه للعصاة والكافرين بسلب المشيئة منهم عن طريق حرمانهم من الهدى بالعمى في مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَن يَبْصُرُوا ﴾ [يس: ٦٦] .

قال ابن عباس في تفسيره لو نشاء لأضللناهم عن الهدى ، فكيف يهتدون ؟! وفي مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَائَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٦٧] .

قال الحسن البصري وقتادة في تفسيرها : لأقعدهم على أرجلهم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا ﴾ ، أى إلى الأمام ، ولا يرجعون إلى الوراء

بل يلزمون حالا واحدا لا يتقدمون ولا يتأخرون .

فما هو المعنى المستفاد من هذه المقابلة بين ما يهدد به من سلب لمشيئتهم وإرادتهم في الآية الأولى وسلب قدرتهم البدنية في الآية الثانية - أى سلب المشيئة والسلوك - وبين نعمة الواقع الذى يعيشونه بمشيئة وقدره ؟ .

لا شك أن المعنى المستفاد فى صالح إبراز المشيئة الإنسانية والقدرة الإنسانية .

المجموعة الثالثة : أبرزت دور المشيئين :

هذه آيات غلب عليها ذكر موقفين للمشيئة الربانية من أفعال العباد . . أحد الموقفين افتراضى وممكن ، والموقف الآخر واقعى ونافذ ، يذكر غالبا بصفات توضح حكمة الله فى إثارة مشيئته اتخاذ هذا الموقف مع ذكر الصفات التى ترد العباد إلى العقيدة الصحيحة فى إرجاع كل أمر إلى مشيئة الله سبحانه .

وإذا كانت المجموعة الأولى من الآيات أبرزت دور المشيئة الربانية بينما أبرزت المجموعة الثانية دور المشيئة الإنسانية ، فإن المجموعة الثالثة أعطتنا صياغة لدور المشيئين فى موقف واحد غاية فى الوضوح والدقة والإعجاز وهذه بعض الآيات :

١ - قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] .

نجد فى هذه الآية الكريمة أربعة مواقف للمشيئة الإلهية ، اثنين قبل الاستدراك «بلكن» واثنين بعدها ، بيد أننا نلاحظ أن الموقفين السابقين على الاستدراك موقفان مفترضان افتراضا على سبيل الإمكان ، بينما نجد الموقفين المستدركين حاصلين بالفعل .

الموقف الأول : المفترض عبر عنه النص الكريم : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلْنَا الَّذِينَ

مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿ فالمشيئة معلقة عن منع الاقتتال بلو ، لكن النص صريح في إفادته قدرة الله على منع الاقتتال مع إفادته أن الله سبحانه لم يشأ ذلك المنع فوقع الاقتتال .

وتأتى « لكن » الاستدراكية لتقرر الموقف الثانى وهو الموقف الواقعى للمشيئة ، أى أن الله إذا لم يشأ منع الاقتتال فإنه سبحانه قد شاء بالفعل منح عباده حرية الاختلاف ، وهو طريق يؤدى إلى الاقتتال على الحق والباطل قتالا قد يصل بالناس إلى درجة الإيمان والكفر : ﴿ وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوْا فَيَنْتَهِم مِّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ ﴾ .

أما الموقفان الثالث والرابع : فبوجه عام يقال فيها ما قيل في سابقيهما ، ولكن هناك إضافة على جانب كبير من الأهمية ، تلکم هى أننا لو جمعنا ما بعد « لكن » الأولى وما بعد « لكن » الثانية لأصبحت الآية نصاً مباشراً في أن حرية الاختلاف الإنسانى فى الاتجاه نحو الإيمان والكفر هى نفسها الفعل الذى أراده الله وقدرته مشيئته فى الأولى : ﴿ وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوْا فَيَنْتَهِم مِّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ ﴾ .

وفى الثانية : ﴿ وَلَكِنْ اَللّٰهُ يَفْعَلْ مَا يُرِيدُ ﴾ .

بمعنى أن الجملتين عبرتا عن شيء واحد ، ولكن من زاويتين ، أو بتعبير أكثر دقة : أعطتنا الجملتان صياغة لدور المشيئتين فى موقف واحد غاية فى التكامل ، يوضح فى عمق وبساطة أن مشيئة الله نافذة غير معطلة ولا عاجزة حين لم تمنع الاقتتال ؛ لأنها عن حكمة بالغة آثرت أن يكون الناس على النحو الذى أراده الله من حيث إتاحة الفرصة لهم كى يعبروا عن وجهات نظرهم التى اختاروها ، بل ويدافعوا ويقتتلوا من أجلها . وهكذا فلن يكون هناك حيف أو قيد على حرية الإنسان ، ولا توجد - فى نفس الوقت - أدنى شبهة فى نفاذ مشيئة الله سبحانه .

تلك معادلة جلاها القرآن الكريم فى نصف آية ، عرضت فيه قضية واحدة مرتين من خلال اعتبارين :

اعتبار المشيئة واختيارها : ﴿وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوْا فَعِيْنُهُمْ مِّنْ ءٰمَنٍ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ﴾ .

واعتبار المشيئة الخالقة لهذه المشيئة وما تختار : ﴿وَلَكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ﴾ ؛ ولأنها قضية واحدة كان صدر الاعتبارين متحدا ، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ، أو ﴿وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا أَقْتَلُوْا﴾ ، فإذا كانت هذه المقدمة المتحدة - قبل لكن - تثبت قدرة المشيئة الربانية على ترجيح فعل الممكن المفترض مع صرف المشيئة عن تحقيقه بالفعل ، فإن ما بعد « لكن » يفيد أمرين :

الأول : أنه لا يحدث في ملك الله إلا ما يريد ، ﴿وَلَكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ﴾ .

والثاني : أن هذا المراد لله هو أن تكون مشيئة الناس شتى ، ﴿وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوْا﴾ .

وذلك هو عين الكمال وفيه التوفيق والصواب والتنسيق الكامل بين العدل في مسئولية العباد مع نفاذ المشيئة العليا وهيمتها على كل ما في الوجود .

٢ - ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآءَاتِنِكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨] .

في الآية الأولى : ﴿وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوْا﴾ ، أو ﴿وَلَكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ﴾ وفي هذه الآية :

﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآءَاتِنِكُمْ﴾ .

وإذن فما يريده الله في الآية الأولى بقوله : ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ﴾ ، يدور في الواقع حول مشيئة البشر من اختلافها أو ابتلائها ، وفق قوله ﴿وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوْا﴾ ، أو ﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ أي بأن يقوم العباد بدورهم الحر المختار بين الطاعة أو المعصية للتكاليف الشرعية وأحكام الدين .

وقوله سبحانه في هذه الآية ﴿فِي مَآءَاتِنِكُمْ﴾ عام يشمل ما هيأه الله الكريم المنعم

من النعم على عباده وما أعطاه ومنحه لهم من الوسائل التي تجعلهم جديرين بتحمل هذه الأمانة .

٣ - وقال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣] .

ونلاحظ في هذه الآية أنها استعملت الاعتبارين الخاصين بالمشيئة العليا ومشية العباد في مستدرك واحد ، فقوله تعالى : ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ، مساو لقوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ، وقوله : ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ، مساو لقوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ لَيَبْلُوَنَّكُمْ فِي مَاءِ آتِنَاكُمْ﴾ ، فجمعت هذه الآية ما ذكر منجما في غيرها ، وحين يجمع السياق ما تفرق ، فإن ذلك يكون أقوى يقينا في تفسير النص بالنص من حيث إن القرآن يفسر بعضه بعضا .

على أن استعمال كلمتي : ﴿يُضِلُّ﴾ و ﴿يَهْدِي﴾ في هذه الآية بدلا من : ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أو بدلا من ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ، في الآيتين السابقتين ، إنما يشير إلى أصل القضية وأساسها باستعمال الكلمات الدالة على نتائجها ، ونعني بالنتائج هنا كتابة الضلال والهدى كنتيجة لاختيار الإنسان بعد ابتلائه ، فمثلا كلمة « يضل أو يهدي » نتيجة من النتائج ، وكلمة « يبلوكم » وسيلة من الوسائل ، بينما كلمة « يريد » شاملة لهذين الأمرين وغيرهما ، ولا يخفى أن الابتلاء ووسائله وغاياته وإمكاناته من حرية واختيار وعلم ، كل ذلك من صنعة الله وخلقه .

٤ - وقريبا من ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨] .

٥ - وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ

جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿ [السجدة: ١٣] .

٦ - وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاكَ مُتَعَلِّفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] .

٧ - وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٥-٣٦] .

٨ - وقال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِنَصْنَعَنَّ إِلَيْهِ أَفْعَدَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوهُ وَلِيَقْفَرُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣] .

وفي هذه الآية كلمة يجب الالتفات إليها وتلك هي كلمة ﴿وَلِيَرَضُوهُ﴾ فهي كلمة قاطعة الدلالة في أن المسؤولية الإنسانية عن الأعمال قوية البنيان والقواعد ، إذ لا يختار العباد أعمالهم فحسب ؛ ولكنهم يرضون ويحبون ما اختاروه وأرادوه فتكتمل مسؤوليتهم عنه .

٩ - وعلى هذا النسق وفي هذا الاتجاه الواضح جاء قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] . تلك هي القاعدة العامة في المشيئة الإنسانية كما أرادتها مشيئة الله أن تكون ، وهذه حكمتها البينة : فطرة على الحرية يزينها العقل ، ويضبطها الوحي ، وعليها بعد البلاغ أن تقبل الإيمان أو تعرض عنه بطريق الاختيار الحر ، ثم يأتي دور المسائلة والجزاء .

المجموعة الرابعة : من آيات المشيئة تبرز القاعدة النهائية :

هذه المجموعة من الآيات تتجه إلى تقرير القاعدة النهائية في المسألة في الصورة التي يجب أن تكون عليها عقيدة المسلم ، وقد وضعناها رابعة المجموعات في

الترتيب إشارة إلى أنها خلاصة مسلمة ييقن لما سبق إبرازه في آيات المشيئة حتى انتهينا في بحثها إلى هذه النتيجة التي ندركها بالعقل والقلب والبصيرة ، لتكون شعارا لنا في كل مشيئة أو عزيمة ، وعونا في كل اتجاه ومسلك ، وأمانا وحصنا في كل وقت وحين وها هي بعض آياتها .

١ - قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ ﴿٣٢﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۖ ﴾ .

[الكهف: ٢٣ - ٢٤]

٢ - قال تعالى : ﴿ إِنْ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۖ ﴿٣٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۖ ﴾ [الإنسان: ٢٩ ، ٣٠] .

٣ - وقال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۖ ﴿٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۖ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ ﴾ [التكوير: ٢٧ - ٢٩] .

سبق أن انتهينا إلى أن دور المشيئة الربانية في المشيئة الإنسانية ، كدورها في كل شيء خلقه الله وأوجده ، ذلك أن مشيئة الإنسان كسائر مخلوقات الله سبحانه خاضعة بكل أوصافها وخصائصها وصلاتها لمشيئة الله عز وجل ، بل وإن خضوعها لمشيئة الله هو عين وجودها كمشيئة حرة مختارة ؛ لأن الخالق البارئ شاءها كذلك .

وهذا نص من السنة المطهرة يؤيد هذا الاتجاه في استيعاب النص القرآني وفق هذا المنطلق الذي اخترناه بتوفيق الله سبحانه .

أخرج البيهقي حديثا مرسلا عن الأوزاعي قال : أتى النبي ﷺ يهودى فسأله عن المشيئة ، فقال الرسول ﷺ : « المشيئة لله تعالى » قال : فإنى أشاء أن أقوم ، قال : « قد شاء الله أن تقوم » قال : فإنى أشاء أن أقعد ، قال : « قد شاء الله أن تقعد » ، قال : فإنى أشاء أن أقطع هذه النخلة ، قال : « قد شاء الله أن تقطعها » قال : فإنى

أشاء أن أتركها ، قال : « فقد شاء الله أن تتركها » .

قال : فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال : « لقد لقنت حجتك كما لقنها إبراهيم عليه السلام » ، قال : ونزل القرآن : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْ هَا فَاقِمْهُ عَلَى أَصُولِهَا فَإِذْنُ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥] .

قال البيهقي : هذا وإن كان مرسلًا فمن الموصولات في معناه ما يؤكد .

وإذن فمن الضروري لتمام الإيهان أن يعتقد المؤمن أن مشيئة الخلق بكل خلجاتها الحرة ومناشطها المختارة في معية مشيئة الله ، لا تستغنى عنها لحظة ولا أقل منها ؛ لأنها فقيرة محتاجة إليها دوماً وفي كل حين ، وهذا من تفسير هذه الآيات من مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وهكذا إذا نحن استوعبنا تفسير هذه الآيات دون تعطيل أو تشبيه لصفة المشيئة الربانية ، ودون إلغاء لعملها في مشيئة الخلق ، كان استيعابنا لغيرها من آيات المشيئة أيسر وأسهل ؛ لأن منهاج إخضاع كل المخلوقات والحادثات لمشيئة الله هو المنطلق الصحيح الذي لا تبقى معه أية شبهة .

وقد يتضح ما نقول بصورة عملية إذا نحن تأملنا بعضاً ولو يسيراً من جوانب آثار المشيئة الإلهية في مشيئة الإنسان نفسه ، وسيتبين من استعراض مثال عملي مدى احتياج الإنسان لمشيئة الله سبحانه كي تبقى مشيئتنا حرة مختارة .

مثال توضيحي :

حين تتخذ مشيئة الإنسان قراراً بزراعة مساحة من الأرض فماذا يحدث ؟ إنها لا محالة تصدر توجيهات شتى لتنفيذ قرارها . فالأرض تحرث وتشق ، ونعرضها للشمس ونرويها بالماء ، ونهيء المواد العضوية التي تسمى بالسماد ، ونتقى البذور ، ونحسب للمفاجآت بتدبير المبيدات لمحاربة الآفات والحشرات ، وتتضافر الجهود

لتضع كل شيء في وضعه ووقته ، وتظل المتابعة النشطة والرعاية الدقيقة من جانب الإنسان حتى يحصل على جنى أرضه وغرسه .

فهل شكوا الزارعون مرة طوال فترة الكفاح والعمل أن مشيئة الله عطلت مشيئتهم أو زاحمتها أو انتقصت منها حبة خردل ؟

وإذا كان الجواب بالنفى – وإنه كذلك – فهل معنى ذلك أن مشيئتهم قد استقلت بهذا العمل دون مشيئة الله سبحانه ؟

هنا نقول بملء القلب يقينا ، وملء اللسان صدقا : « لا » ، وألف « لا » مؤكدة لنفى استقلال العباد بالمشيئة ، فكل مشيئة إنسانية باشرت صلاحيتها في الزراعة هي من فيض مشيئة الله ، ومن صنعته وخلقه ، أبدعتها يد الله وأبدعت غيرها معها والناس في نوم وغفلة .

وقبل أن ندخل في رعاية الأرض والزرع هل لنا أن نسأل : أرض من هذه تلك التي حرثنا فيها وغرسنا ؟ ومن أين لنا بنور الشمس كي يتخلل التربة ؟ ثم من الذى خلق البذرة ؟ ومن أي مصنع انتقينا أجودها ؟ ومن أين لنا بالماء لريها وسقيها ؟ ومن أجراه وأنزله من المزن وفجره عينا وينبوعا ؟ وأية مشيئة هذه إذا ما الله خلاها ؟

هذا من حيث الأساس والمبدأ ، أما من حيث التفاصيل ، فإننا إذا نظرنا في رعاية الأرض والزراعة وجدنا أن الجزء الذى باشره الإنسان هو أيسر الأجزاء وأهونها وأبسطها ، وهو أولا وأخيرا من صنعة الله وخلقه ، أما الجوهر الأساسى فى القضية فيما باشر الناس منه شيئا .

لقد شق الإنسان الأرض وغمرها بالماء ، لكن العمليات المعقدة داخل التربة وخارجها التى تكسب الأرض مظاهر الحياة من اهتزاز ونمو وتمدد وإنبات ، هذه

ونخلص من هذا المثل بأن المشيئة الإنسانية ، في حاجة مستمرة ودائمة إلى المشيئة الربانية تدعمها بأسباب الوجود والحياة ، وهذا الدعم في الحقيقة إنما هو في الوقت نفسه دعم الحرية الاختيار في الإنسان .

والآثار العملية كلها شاهدة بذلك ، من أجل هذا أمكن أن تكون مسئولية العباد عن الجزء الذي تطوله مشيئتهم وقدرتهم قائمة ، وأن يكونوا مسئولين عنه بين يدي الله سبحانه .

الفصل الثاني

مناقشة الاعتذار بالقدر والمشيئة والاحتمالات الرئيسة بين المشيئتين

يقرر الإسلام أن الاعتذار بالمشيئة الإلهية عن الأخطاء الإرادية انتقاص من نعمة الحرية التي منحها الله للإنسان ، وانتقاص الحرية يناقض اتجاه الإسلام لتنمية المسؤولية ، والحرية والمسؤولية معا يضعهما الإسلام بكل سهولة ويسر في المكان العقلي والقلبي الذي ينميها ويحفظ كيانهما .

فإنه مع ثبوت العقيدة الإسلامية في المشيئة الربانية وهيمنتها على كل ما في الوجود ، ومع انبثاق الاعتراف بالجهد الإنساني ومشيئته من حيث إن إرادة المشيئة الربانية قد اقتضتتها على هذا النحو فقط ترتب على ذلك أنه لا يجوز لأحد أن يعتبر المشيئة الربانية حجة يعتذر بها عن اختياره لغير طريق الخير والحق ، وقد بين القرآن أن الاعتذار بالمشيئة الإلهية عن الأخطاء والشروع محاولة لا جدوى منها ولا تغنى عن قائلها شيئا ، بل إن محاولتهم الاعتذار بذلك سيحسب عليهم في صحائفهم كذبا وزورا ومكابرة جاهلة لا تستند إلى علم سليم أو اعتقاد صحيح .

قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيَّةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

[المائدة: ١٤٨ - ١٤٩]

هاتان آيتان : أولاها تقرر أن اعتذارهم بالمشيئة الإلهية لا يستند إلى علم ، بل هو قائم على الظنون الفاسدة ، والكذب في الادعاء .

أما الآية الثانية فقد قطعت عليهم بالحجة البالغة أو هامهم وادعاءاتهم فالحجة البالغة لله وحده على كل خلقه ، ولقد حاجت الآية المشركين بنفس حجتهم ، ولو أننا تأملنا مليا قوله سبحانه : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لأدركنا أن ما اعتبره المشركون حجة يعتذرون بها عن الشرك اعتبرته الآية الكريمة حجة عليهم .

فهم قد قالوا في الآية : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ .

وردت عليهم الآية الثانية فقالت : ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

والمعنى الدقيق الذى نلمحه بالتأمل هو أن الله سبحانه لو هداهم بالمفهوم الذى يريدون ، لما كان لهم أن يرجوا ثوابا على خير لم يختاروه لأنفسهم ولا ارتضوا أن يشاركوا فيه بجهد . والدليل على ذلك أنهم يتهربون من مسئولية الشرك بالمشيئة الإلهية التى كتبت عليهم أن يشركوا ، أو مقتضى ذلك أنه لا ينبغى لهم أن يطمعوا فى ثواب - إذا هم أطاعوا على طاعة ليس لهم فيها دخل ، إلزاما لهم بنفس منطقهم . وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] .

فليست الحجة فى أن يرغموا على الهدى كما يزعمون ، ولكن الحجة لله فى أن يرتضوا الإيمان ويختاروه راغبين ، فالله قد خلقهم مهينين للخير وفق ما أرادت مشيئته سبحانه ، أى أن يشاءوا الخير لأنفسهم ، ويؤثروه على غيره ، فيكون لهم ثواب ما ارتضوه واختاروه .

حقا إن كلا الأمرين مشيئة ربانية ، لكن الأمر الأول الذى يختارونه محتجين - أى قولهم : لو شاء الله ما أشركنا - هذا الأمر يفقدهم حريتهم واختيارهم وبالتالي يفقدهم حكمة الثواب والعقاب .

أما الأمر الثانى الذى جرى فيهم وفى مشيئتهم بمشيئة الله فإنه يجعلهم أهلا للرضا والاختيار والحرية ويمنحهم كرامة المسؤولية عن أعمالهم ويحفظ حكمة الثواب والعقاب .

وقد تردد فى القرآن الكريم استنكار محاولة المشركين هذه فى أكثر من موطن ، منها غير الآية التى سبقت قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٠ - ٢١] .

ويترتب على ذلك أن نخلص بنتيجتين هامتين :

١- إن الله سبحانه لو هدى الناس أجمعين ومنعهم عن الشرور والمعاصى - وهذه صورة من صور آثار المشيئة التى يمكن حدوثها - لتحول الناس حيثئذ إلى كائنات تشبه الملائكة فى هذا الوجه ، ولبطلت بالتالى حكمة التكليف القائم على الاختيار الحر ، ولأصبحوا مجبورين ، وسنستوفى احتمالات علاقة المشيئتين فورا إن شاء الله .

٢- إن الناس إذا اعتذروا بعجزهم بحجة المشيئة والقدر ، فقد جحدوا نعمة أكرمهم الله بها . تلكم هى نعمة الحرية ، وأنكروا صورة من آثار المشيئة العليا فى مشيئتهم كما هى طبيعة الإنسان التى أرادها الله ، ولما كان لهم حق الطمع فى ثواب على طاعة . وكلها أمور منافية للواقع ومعارضة لنصوص الوحي الصريحة الواضحة .

احتمالات رئيسة لموقف المشيئة الربانية من المشيئة الإنسانية ومناقشتها :

١- ويمكننا أن نستعرض المواقف المحتملة فى علاقة مشيئة المخلوقين من حيث

صواب هذه الاحتمالات أو بعدها عن الصواب من الناحية العقلية كى نصل إلى نفس النتائج التى قررتها نصوص الوحي ، وأول هذه الاحتمالات :

أن تنفذ مشيئة الخالق ملغية مشيئة المخلوق ، والجزء الأخير من هذا الاحتمال فاسد من عدة أوجه نذكر أهمها فيما يلى :

(أ) لأنه يترتب على هذا الاحتمال أن تكون الطاعة والمعصية ، والإيمان والكفر ، والإحسان والإساءة ، أموراً خالية من الجهد الإنسانى فى التوجه والقصد إلى غاية حسنة أو سيئة ، ويصعب حينئذ تحميل الإنسان تبعثها ، بينما هو مسئول ومجزى بها .

(ب) ولأنه يترتب عليه أن يكون الإنسان مخلوقاً عاجزاً على غير الصورة التى فطر عليها ، وبها امتن الله عليه ، وميزه على كثير من خلقه .

(ج) ويترتب على هذا الاحتمال أيضاً معارضة نصوص الوحي الصريحة التى تحدثت عن الإنسان ومشيئته ، وإذن فهو احتمال فاسد ومرفوض .

الاحتمال الثانى : أن تلغى مشيئة الخالق صلاحيتها - وهذا محال - لتفسيح المجال لمشيئة المخلوق كى يتحقق مرادها وينفذ ، ولا شك أنه احتمال أشد فساداً من فساد الاحتمال الأول لعدة وجوه أهمها :

(أ) قلب الأوضاع رأساً على عقب يصبح فيها المخلوق المملوك المحتاج أقوى من موجدته وخالقه .

(ب) فى هذا الاحتمال عجز وتوقف لمشيئة الخالق وهذا محال .

(ح) مجرد القول بذلك معناه هلاك مشيئة الإنسان وفناؤها وسيأتى شرح ذلك فى الاحتمال الثالث إن شاء الله ، وخلاصته أن مشيئة الإنسان لا تستغنى عن مشيئة الله .

(د) تعارض هذا القول الإلحادى تماماً مع نصوص الوحي والشرعة .

الاحتمال الثالث : أن تقف مشيئة الخالق موقف الحيدة من مشيئة الإنسان فلا تتدخل في شئونها وهو احتمال بعيد عن الصواب للأسباب الآتية :

(أ) القول بحيدة المشيئة معناه المباشر التعطيل لصفة المشيئة عن العمل الدائم المستمر في بعض مخلوقاتنا وهذا محال ، ومشيئة الإنسان لم تخرج عن كونها واحدة من مخلوقات الله التي لا تستطيع العقول حصرها وإحصاءها لو فرتها وكثرتها ، فلماذا نستثنى المشيئة الإنسانية من بين الكائنات الحادثة استثناء يؤدي إلى الطعن بما لا يجوز في مشيئة الله .

(ب) ولأنه احتمال يؤدي إلى إعدام المشيئة الإنسانية ذاتها لعدم قدرة أى مخلوق على الاستقلال في وجوده بنفسه ، لحاجته الدائمة إلى مشيئة خالقه ، وإذن فالقول بحيدة المشيئة الإلهية معناه في الواقع هلكة المشيئة المخلوقة .

(ج) تعارض هذا القول مع نصوص القرآن والسنة .

الاحتمال الرابع : أن تقف المشيئة الإلهية من مشيئة الإنسان موقفها من جميع مخلوقاتنا لا تتخلى عنها أبداً ، فما دامت مشيئة الإنسان موجودة فهي تتلقى من مؤجدها ما يحفظ عليها هذا الوجود بكل خصائصه ومميزاته التي تميزه عن وجود المخلوقات الأخرى . ونعني بمميزات وجود المشيئة الإنسانية فطرة الحرية والقدرة على الاختيار والترجيح بين الممكنات التي تصلح موضوعاً لنية الإنسان وعمله بالكيفية التي أرادها الله سبحانه ، ولقد شاء الله أن تكون لعباده (مشيئة) فلماذا يحاول البعض أن يجحد فضل الله على عباده عن طريق التشكيك في فاعلية مشيئتهم ، وماذا نطلق على المشيئة الإنسانية من الأسماء ، وهل نسميها بغير اسمها كي نتمكن من مسحها وإهدارها ؟ وإذا استرسلنا في هذا الطريق الموحش ، فهل قياساً على هذا المنطق نلغي (علم) الإنسان الذي أثبت القرآن كذلك بقوله : ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ،

ويقوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۖ ﴾ ، ويقول : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۖ ﴾ ،
 ويقول : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۖ ﴾ ، ويقول : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ۖ ﴾ ،
 وقوله عن يوسف : ﴿ إِنِّي حَفِظْتُ عَلَىٰ ۖ ﴾ ، أنلغى علم الإنسان المحدود ، كي تتمكن
 من إثبات علم الله الذي لا حدود له ؟

أو نتوجه وجهة أخرى في إثبات مشيئتنا أو علمنا على حساب عقيدتنا في مشيئة
 الله وعلمه .

لا هذا ، ولا ذاك يجوز أن يصدر ، وإنما الاعتقاد الحق والواجب أن الإنسان بكل
 ملكاته وقدراته وما آتاه الله من نعم وفي مقدمتها المشيئة الحرة المختارة حق له
 وجوده ، وعلى أساسه كان التكليف والمساءلة .

لكن كل ذلك بجملته وتفصيله ، ووسائله وآثاره خاضع خضوعاً كاملاً ومطلقاً
 لله سبحانه بل ويتوقف في وجوده وعمله وعظائه على مشيئة حكيمة رحيمة عادلة
 تحيط بالخلق كله تلکم هي مشيئة الله سبحانه .

ولعلنا لا زلنا نذكر حقيقة التيسير أو المعونة وما فوقها من درجات ،
 والاستدراج وما دونه من درجات سحيقة ، وقد شرحنا آنذاك أن موقف المشيئة
 الإلهية كان في عون المشيئة الإنسانية دائماً سواء اختارت الخير أم اختارت سواء ،
 ومن أراد مزيداً من التفصيل فليعد إليه في ما سبق .

وهكذا نستطيع أن نستوعب مطمئنين صحة هذا الاحتمال وسلامته ، ونستبعد
 الاحتمالات الثلاثة الأولى التي اتضح فسادها وزيفها ، ليبقى الاحتمال الرابع وحده
 صالحاً للبقاء ، ويتحول في عقولنا واعتقادنا إلى أمر واجب لا يقبل الانتقاء .

الفصل الثالث

المشيئة وخواتيم العمل

سؤال يتفرع عن تقريرنا بالنقل والعقل وجوب الاعتقاد في رعاية الله للاتجاه الذى يختاره الإنسان حيث منحه الحرية والقدرة التى يستطيع بها مواصلة السعى فى الاتجاه الذى اختاره بل وكفل له ضمان التيسير إلى اليسرى والعسرى فإذا استدأمر المرء وأدمن طريق الخير تحول التيسير إلى معونة ذات فاعلية أقوى ، وإذا استدأمر وأدمن طريق الشر تحول التيسير إلى ما هو أكثر فاعلية فى هذا الباب ، وسمى القرآن ذلك بالاستدراج وقد عرفنا أننا أن المعونة والاستدراج كليهما امتداد طبيعى فطرى لتنمية الخير أو الشر على حدسوا ، كالبذرة الحلوة أو المرة تنمو ثمرتها من جنس حلاوتها ، أو مرارتها .

بيد أن النصوص أشارت إلا حالات قد يعسر مبدئياً تطبيق هذه القواعد عليها ، فالقرآن يقرر أنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، ومن هنا فقد كان جلّة الصحابة وكبارهم من أمثال الصديق أبى بكر يقولون : لو وضعت احدى قدمى فى الجنة ما أمنت مكر الله .

وسجلت السنة روايات صحيحة عن رجال قضوا أعمارهم فى عمل صالح ، ثم سبق عليهم الكتاب فختم لهم بعمل غير صالح فكانوا من أهل النار .

كما سجلت صوراً أخرى لرجال قضوا كل أعمارهم فى عمل غير صالح ، ثم سبق عليهم الكتاب فختم لهم بعمل صالح فكانوا من أهل الجنة .

وللرسول ﷺ أحاديث صحيحة فى أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، وفى هذا روى البخارى أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لن يدخل أحداً

عمله الجنة » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ! ، قال : « لا ، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة ، فسدّدوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً ، وإما مسيئاً فلعله أن يستعذب » ^(١) .

وفي المعنى الأول روى الإمام البخارى في كتاب القدر أن رسول الله ﷺ قال : « إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغاً مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع : برزقه ، وأجله ، وشقى أو سعيد ، فوالله إن أحدكم - أو الرجل - يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » ^(٢) .

وروى الإمام البخارى في باب العمل بالخوانيم عن أبى هريرة ؓ قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر ، فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن يدعى الإسلام : « هذا من أهل النار » . فلما حضر القتال قاتل الرجل من أشد القتال ، وكثرت به الجراح فأثبته ، فجاء رجل من أصحاب النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت الذى تحدثت أنه من أهل النار ، قد قاتل في سبيل الله من أشد القتال ، فكثرت به الجراح ، فقال النبي ﷺ : « أما إنه من أهل النار » .

فكاد بعض المسلمين يرتاب ، فبينما هو على ذلك إذ وجد الرجل ألم الجراح ، فأهوى بيده إلى كنانته فانتزع منها سهماً فانتحربها ، فاشتد رجال من المسلمين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله صدق الله حديثك ، قد انتحرب فلان فقتل نفسه فقال رسول الله ﷺ : « يا بلال قم فأذن : لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وإن الله ليؤيد

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

هذا الدين بالرجل الفاجر»^(١).

فهذه نصوص ثلاثة ، وغيرها مثلها كثير ، يوهم ظاهرها بأمرين :

١ - التقليل من أهمية العمل من حيث الجزاء عنه .

٢ - تغير موقف المشيئة في مساندتها للاتجاه الذى يختاره العبد حتى نهاية الشوط .

وكلا الأمرين يبدو وكأنه لا يتفق مع القواعد التى قررتها القواعد التى أخذناها من القرآن والسنة .

السؤال المطروح إذن :

وإذن قد تشكل هذه النصوص سؤالاً هاماً يجدر بنا أن نتصدى للإجابة عليه وفق القواعد التى قرناها آنفاً عن المشيئة ، ويمكن صياغة هذا السؤال أولاً فى الصورة التالية :

هل تقلل هذه النصوص فعلاً من قيمة العمل ، فيذهب سدى جهد عمر طويل ، فى لحظات قليلة فى خواتيم حياة المرء ؟

ولماذا تغير موقف المشيئة الإلهية فجأة ، ولم تمض قدماً لتأييد مسيرة العبد فى الاتجاه الذى اختاره لآخر المدى ، بل ختم له على غير ما كان من غالب سعيه ؟

الإجابة على هذا السؤال :

والجواب على الشق الأول من هذا السؤال المزدوج هو : أن هذه النصوص لم يقصد منها إطلاقاً التقليل من أهمية العمل ، وإنما قصد منها أمور ثلاثة فى غاية الأهمية :

أ) قصد منها - أولاً - تقرير فضل الله على عباده الصالحين ، حيث إن ما أعد الله

لهم في جناته فوق القيم الحقيقية لصالح أعمالهم مهما كان الجهد المبذول فيها عظيما وكبيرا .

فلقد كان من الممكن - عدالة - أن تكون النعم الدنيوية على العبد هي الجزاء على عمله الصالح « وقصة عابد بنى إسرائيل معروفة » .

وقد كان من الممكن أيضا أن يثاب العبد الصالح على عمله بأن ينعم في الجنة مقدار الزمن الذى بذله في الطاعة ، أو مقدار عمره الدنيوى كله .

وكان من الممكن غير ذلك من صور الجزاء العدل .

أما أن يكون الجزاء على النحو الذى بشر به القرآن والسنة فإنها هو محض الفضل من الله على عباده ، وما يدخل أحد الجنة بعمله كما قال رسول الله ﷺ ، وتلك حقيقة لا شك فيها ولا مرأى ، والمقصود بها إظهار فضل الله ورحمته حتى نجتهد في عملنا وجهدنا أكثر وأكثر ، شكرًا لله الكريم على واسع فضله .

(ب) وقصد منها - ثانيا - التحذير من الغرور بالعمل ؛ لأن الغرور بالعمل ينافي الحقيقة التى أشرنا إليها عن فضل الله الواسع من جهة ، ولأنه يؤدى آجلا أو عاجلا إلى فساد الباطن من جهة أخرى ، بينما لا تصلح الأعمال في الإسلام إلا بصلاح الباطن والنية ، وإذا فسدت النية ضاع العمل كله فلزم التحذير من الغرور بالعمل حرصا على العمل نفسه .

(ج) وقصد من هذه النصوص إجادة العمل دائما من حيث إن العبد لا يعلم في أي وقت من الأوقات تكون خواتيم عمله ، والمؤمن الصادق هو الذى إذا أمسى فإنه لا ينتظر الصباح ، وإذا أصبح فهو لا ينتظر المساء ، ومن هنا كانت الدعوة إلى العناية بخواتيم الأعمال في منهاج المؤمنين وأعرافهم دعوة حقيقية لصالح أعمالهم في كل أوقاتهم ، فما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت .

وإنه لما يؤكد ويزكى هذا الفهم لتلك النصوص ، وجود نصوص أخرى صحيحة في السنة تدعو إلى إحسان البداية للأعمال إلى جوار خواتيمها . فأحاديث النية معروفة ، ومثلها النصوص ببداية الأعمال بالبسملة ، وأذكار الصباح والمساء .

والقرآن الكريم نفسه يقول : ﴿ قَسَّبَحْنِ اللَّهَ حِينَ نُمُوتُ وَحِينَ نُصْبِحُونَ ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨] .

فشملت هذه الآية جميع الأوقات والأمكنة .

ومن تأمل مقاصد هذه النصوص يتأكد لنا ، أن تقليلا من أهمية العمل أو قيمته أمر غير وارد وغير محتمل قطعاً وبقينا .

كيف والقرآن نفسه يقول : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢] .

فهل يعقل ، وهل يتأتى أن نضع الحديث الشريف : « لن يدخل أحدا عمله الجنة » في مواجهة النصوص القرآنية دون أن نتعرف على المقاصد التي تتفق مع الآية فيه ؟
والخلاصة : أنه إذا كان فضل الله واسعا في نسبة دخول الجنة إلى أعمال عباده دفعا لها إلى مستوى أرفع ، فإن سيدنا رسول الله ﷺ يلفت أنظارنا لهذا الفضل الرباني دفعا لنا إلى العرفان والشكران بإخلاص الأعمال لله ، ومن إخلاصها لله إجادتها وإتقانها ، ودفعا قدما إلى الازدهار والنماء .

فالهدف إذن من القرآن والسنة واحد ، وهو الحث على تنمية وتركية العمل وتحريره من كل شائبة ، ولا يحتمل من قريب أو من بعيد التقليل من أهمية العمل .

الإجابة على الشق الثاني من السؤال :

لم تغير المشيئة الربانية موقفها فجأة من عبد مطيع لتجعله من أهل النار ، وإخبار

النبي ﷺ عن الرجل الذي أبلى في القتال سلفاً بأنه من أهل النار يقضى أساساً على احتمال المفاجأة المتوهم ، ثم إن أذان بلال بأمر النبي ﷺ : « لا يدخل الجنة إلا مؤمن » ، إشارة واضحة إلي عدم إيمان هذا المقاتل ، كذلك في قول الرسول ﷺ وهو يأمر بلالاً بالآذان : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » وصف جديد يضاف على الرجل المقاتل ملامحه الحقيقية ، فالفجور - والعياذ بالله - قد عشش في أعماقه وباض وأفرخ ونما حتى استفحل ، ولم يعد لظاهر أعماله جدوى في أن تفسح لها مكاناً حقيقياً في نيته وقصده .

بيد أن هناك رواية لهذه الواقعة ذاتها رواها الإمام البخاري في باب غزوة خيبر تشتمل على إجابة صريحة وتفسير شاف لمثل هذه النصوص وما قد يتوهم من تغير مفاجئ للمشئنة يهدر سابقة عمل طيب لعبد مؤمن .

فقد روى البخاري : عن سهل قال : التقى النبي ﷺ والمشركون في بعض مغازيه فاقتتلوا ، فمال كل قوم إلى عسكريهم وفي المسلمين رجل لا يدع من المشركين شاة ولا فاذة إلا اتبعها فضرها بسيفه ، فقليل يا رسول الله : ما أجزأ أحدهم ما أجزأ فلان ، فقال : « إنه من أهل النار » فقالوا : أين من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار .

فقال رجل من القوم لاتبعته ، فإذا أسرع وأبطأ كنت معه ، حتى جرح فاستعجل الموت ، فوضع نصاب سيفه بالأرض وذبابه بين ثديه ثم تحامل عليه فقتل نفسه . فجاء الرجل إلى النبي ﷺ فقال : أشهد أنك رسول الله . فقال : « وما ذاك ؟ » فأخبره ، فقال : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وإنه من أهل النار ، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » .

والشاهد في قوله ﷺ : « فيما يبدو للناس » فكأن أمثال هذه الحالات تكون فيها الحقيقة شيئاً ، والمظهر شيئاً آخر ، فما يبدو للناس من الأعمال الصالحة أو السيئة

ليس هو الصورة الحقيقية التي تعبر بأمانة عن أصحابها .

ولقد كان من الممكن أن تظل الصورة غامضة حتى يموت هؤلاء فلا تعرف للناس إلا وقت الحساب يوم القيامة ، لكن في كشف بعض منها درساً بليغاً يهدف إلى تنبيه الناس إلى إحسان الأعمال الظاهرة والباطنة ، وصدق المراقبة فيها لله سبحانه ، والحذر الشديد من أسباب حبوط العمل وسوء الخاتمة وقانا الله منها ومن كل سوء وأحسن لنا عواقب الأمور وخواتيم الأعمال .

ومن هنا يتبين لنا أن هذه النصوص إنما تضع أيدينا على ما كان يعلمه الله من أسرار بعض خلقه الذين يظهرون غير ما يبطنون فلا نعلم عنهم شيئاً ، وقد عوملوا بها يستحقونه من جزاء وصدق الله العظيم : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنٰى ﴾ (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿ [النجم: ٣١-٣٢] .

الفصل الرابع

وضوح الاعتبارات المختلفة

لإطلاق كلمة المشيئة فى القرآن

تطلق كلمة المشيئة أو اشتقاقاتها باعتباريات متعددة تناسب المقام الذى استعملت فيه ورعاية هذه الاعتبارات تضع حدا لكثير من المشكلات الفكرية المتوهمة ، أو التى تنشأ بسبب الخلط بين هذه الاعتبارات ، وترجع هذه الاعتبارات إلى اعتبارين اثنين أساسيين :

١ - الاعتبار المطلق القديم ، المستعمل بخلقه وإيجاده لكل مخلوق ، والمهيمن هيمنة حقيقية كلية وجزئية على كل شيء ، ويمكن إطلاق المشيئة بهذا الاعتبار إطلاقاً حقيقياً وشاملاً على مخلوقات الله سبحانه من كل الكائنات الحادثة وأعمالها وأوصافها ومتعلقاتها جميعاً من حيث علاقة المشيئة الإلهية بكل الموجودات الحادثة دون أى استثناء - بما فى ذلك مشيئة الإنسان وحرية واختياره وأفعاله - فهو سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وكل موجود من مشيئته سبحانه .

وبناء على هذا فإن هذا الاعتبار قد يطلق مراداً به المشيئة الإلهية البحتة .

وقد يطلق مراداً به المشيئة الإنسانية باعتبارها مخلوقة ومراده لمشيئة الله سبحانه .

وقد يطلق مراداً به المشيئة الربانية والمشيئة الإنسانية .

وقد يطلق مراداً به معان كثيرة متعددة لا تنهاى كثرة لعدم توقف ارتباطها وعملها فى العوالم الواسعة والكائنات الممتدة .

٢ - الاعتبار الحادث المحدود المتعلق بمشيئة البشر التى أرادتها مشيئة الله بما فيها من أوصاف تؤهلها لمسئولية الابتلاء كى يتمكن العباد من طاعة ربهم مختارين

راضين لينالوا ثواب اختيارهم وجزاء رضاهم حتى يكونوا من الذين ﷻ ورضوا عنه .

أو يتحملوا مسئولية الاتجاه المضاد بها فيه من شقاء وآلام .

ويمكن إطلاق المشيئة بهذا الاعتبار إطلاقاً يتصف بقيود الحوادث والمخلوقات وأهمها وفي مقدمتها الخضوع المطلق لمشيئة الله .

بيد أنها - أى مشيئة الإنسان - تتميز على غيرها من الموجودات الأخرى بنفس المميزات التى منحها إياها مشيئة الله من قدرة على اختيار سبيل الخير أو الشر وفق قواعد الرحمة والحكمة والعدل التى اختص الله نفسه بعلم تطبيقها فى مشيئة الإنسان ، وأخبرنا بوحيه الصادق المصدق بأنه سبحانه لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

استعمال القرآن الكريم لقاعدة الاعتبارات المختلفة :

وهذه الإطلاقات أو الاعتبارات استعملها القرآن الكريم استعمالاً مطرداً وصريحاً لا لبس فيه ولا غموض حتى لم يعد هناك مسوغ للجهل بها .

وقد نعى الله على المتكلمين فى القدر والمشيئة - دون رعاية أو إدراك منهم لهذه الاعتبارات - هذا الجهل المفرط ووصفهم بأنهم لا يكادون يفقهون حديثاً « بالتكثير يعنى أى حديث » .

كما وصفهم فى مواطن أخرى بالكذب والادعاء والجهل .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٨ - ٧٩] .

وقبل أن نفصل الاعتبارات المختلفة لنسبة العمل إلى الله وإلى عباده فى هاتين

الآيتين نذكر أولاً ما ذهب إليه المفسرون في هاتين الآيتين خصوصاً الذين يعتمدون على التفسير المأثور . فقد اتجهوا إلى تفسير الحسنة بالنعم ، وتفسير السيئة بالنقم ، أى ما كان منهما بلا اختيار من الإنسان .

وقد ذكر ابن القيم آراء السلف هذه ثم قال :

وهذا إجماع من السلف في تفسير هذه الآية ، ورد ما نسب إلى أبى العالية من تفسير الحسنة والسيئة بالطاعة والمعصية . لكن ابن القيم استأنف يقول : « وقد يقال إن المعنيين جميعاً مرادان باعتبار أن ما يوفقه الله من الطاعات فهو نعمة يدخل فيه نعم الدين والدنيا ، وما يقع فيه من المعصية فهو مصيبة » .

والذى يوضح ذلك أن الله سبحانه إذ جعل السيئة هى الجزاء على المعصية من نفس العبد بقوله : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَانْظُرُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ فالعمل الذى أوجب الجزاء أولى أن يكون من نفسه ، فلا معافاة من أن تكون سيئة العمل من نفسه وسيئة الجزاء من نفسه ، ولا ينافى أن يكون الجميع من الله قضاء وقدرًا .

ولكن هو من الله عدل وحكمة ومصلحة وحسن ، ومن العبد سيئة وقبح ^(١) .

وعلى هذا الضوء يمكننا النظر فى خمسة اطلاقات اشتملت عليها الآيتان :

١- نسب المشركون الحسنة إلى مشيئة الله ، وهذا هو الإطلاق الأول .

٢- ثم نسبوا السيئة نسبة اعتبارية تشاؤمية إلى مشيئة رسول الله وهذا هو الإطلاق الثانى .

وفى هذين الإطلاقين خلط وجهل يفسره حال المشركين وما يتصفون به من غرض سيئ وعقيدة فاسدة فهم قد نسبوا إلى الله ما يعجبهم ويسرهم لا اعترافاً

(١) كتاب شفاء العليل فى القضاء والقدر والتعليل ، لابن القيم ص ١٥٩ - ١٦٠ باختصار شديد ،

بفضل الله وإنما بقصد تجريد النبي ﷺ من هذا الفضل ، بينما نسبوا ما لا يعجبهم إلى رسول الله ﷺ وهم يقصدون أن الله لم يفعل هذا السوء بهم لا أدبا منهم في الخطاب مع الله ، ولكن بقصد الإساءة إلى رسول الله ﷺ .

ومن هنا كان الإطلاقان غير مقبولين لفساد القصد فيهما ، حيث قصد بهما الإساءة إلى رسول الله ﷺ ، وخلا الإطلاق الثاني من نسبة الفعل إلى مشيئة الله ؛ ولذلك جاء الإطلاق الثالث للرد على هذا الفساد من وجهيه .

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهذا الإطلاق للرد على المنافقين من الناحيتين ، من ناحية قصدهم الإساءة إلى رسول الله ﷺ حيث نسب الله لنفسه كل ما يحدث لهم ، أى أن الذى زعمتم أنه من رسول الله ﷺ إنما هو من الله الفعال لكل شيء ، ومن ناحية أخرى فأنتم بزعمكم الكاذب هذا قد عطلتم مشيئة الله عن العمل وذلك محال . وواضح أن هذا الإطلاق القرآنى الصحيح روعى اعتبار المشيئة الإلهية المحضة .

أما الإطلاق الرابع فقد روعى فيه الاعتباران معا ، مشيئة الله ومشيئة النبى باعتبارها مخلوقة لمشيئة الله ، ولذلك جاء التعبير عنهما بمشيئة الله وحدها .

قال تعالى : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ .

والحسنة هنا قد تحدث بسبب توفيق الله للعبد لطريق الخير ، ويرشح لذلك الإطلاق الخامس الذى سيأتى ، فهو مقابل لهذا الإطلاق وفيه ما يصيب العبد من السيئات إنما هو بسبب ذنوبه ؛ لكنه لما كان التوفيق للخير والطاعة هو من خلق الله وتقديره فقد علمنا القرآن أن ننسب ما يصيبنا من الخير إلى مشيئته على سبيل الحقيقة وعلى سبيل الأدب مع الله .

كما يمكن نسبة ما يصيبنا مما لا نحسب إلى الله سبحانه إذا اقتضى الموقف ذلك كما حدث في الإطلاق الثالث الذى سبق .

١- إطلاق يراد منه مشيئة العبد وحده ، وخطاب النبي فيه خطاب لأُمَّته وتعليم

لها . قال تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ .

وغنى عن البيان أن كل ما يصيب العبد بمشيئة الله لكنها هنا تنسب إلى العبد أدبا مع الله ، وإن كانت هذه النسبة تمثل حقيقة من الحقائق التى خلقتها مشيئة الله ، وتلك الحقيقة هى قدرة العبد على أن يشاء بمشيئة الله ويختار بمشيئة الله ويسعى لتنفيذ اختياره بمشيئة الله ، ومع أنه فى اختياره ومشيئته ومسعاؤه وقدرته وحرية مراد لمشيئة الله ، إلا أن هذه النعم تشكل مشيئة حقيقية للإنسان يمكن نسبة الأفعال إليها فى إطار الاعتقاد السليم والأدب الواجب مع الله سبحانه .

على أن الفصل الأساس فى هذه الإطلاقات هو كما قلنا فى إدراك الفارق بين الإطلاق المتعلق بالمشيئة الربانية اللامحدودة وبين الإطلاق المتعلق بالمشيئة الإنسانية المخلوقة . وهذه قاعدة عامة ينبغى رعايتها فى كل الصفات التى تطلق على الخالق بمعناها المطلق ، وتطلق على العباد بمعناها المحدود . فمثلا الله قدرة وعلم وإرادة وسمع وبصر ومشيئة ، وكلها صفات مطلقة قديمة غير محدودة فى كمائها .

وللإنسان أوصاف تسمى بمثل هذه الأسماء ولكنها صفات محدودة حادثة لا تعمل إلا فى مجال خاص هو المجال الذى أراده الله ، ولا حرج من إطلاق هذه الأوصاف على الإنسان فى إطار ما قدمنا من فقه واعتقاد ، والقرآن نفسه ملئ بهذه الإطلاقات .

وضوح النصوص القرآنية فى المشيئة رد على شبهة :

ها نحن قد رأينا وضوح هذه القضية فى القرآن الكريم وضوحا تفصيليا وكاملا ، فقد تناولت نصوص القرآن المشيئة الربانية مستقلة فى كمائها وإطلاقها ، وتناولت المشيئتين معا ، كما تناولت العلاقة بين المشيئتين واحتمالاتها ، وسجل القرآن الكريم

في النص السابق مباشرة استنكاره لأي لبس أو خلط يقع بين المشيئتين ، وراعى هذا النص الاعتبارين ، واستعمل إطلاقاتهما في مجال متجاوز تأكيداً لهذا الوضوح ومن قبل ذلك تناولت نصوص القرآن قواعد التيسير والمعونة والاستدراج كما أوضحت الأحاديث النبوية أية شبهة تعرض للقضية مبينة أوجه العدل والرحمة والحكمة بما لا يدع مجالاً لاثهام القرآن بعدم الإفصاح عن نفسه بطريقة واضحة وكافية .

نقول ذلك بمناسبة ما غلب على ظن الكثيرين من أن النصوص الدينية لم تعالج هذه القضايا بالدرجة الكافية ، ويبدو أن بعض الخاصة قد تأثروا بهذا الظن ، ومثال ذلك ما ورد في كتاب « دستور الأخلاق في القرآن » ومع أنه كتاب ممتاز ألفه فضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمته الله الذي عُرف بعلمه الغزير وورعه وتقواه .

غير أنه ورد في الكتاب المذكور عبارات لا تتفق مع معالجة القرآن الواضحة والصريحة لهذه القضية كما لمسنا بأنفسنا فيما قدمناه من نصوص .

ومن هنا لزم التنبيه إلى هذه العبارات ، خصوصاً لما للمؤلف من ثقة واحترام في نفوس إخوانه وأبنائه ، فقد تمر هذه العبارات بجواز الثقة دون تمحيص .

ونود أن نقول : إن تنبيهنا على هذه العبارات لا يغض أبداً من القيمة العظيمة لهذا المؤلف الجليل ، وتلكم هي العبارات دون إطالة في التحفظات والمقدمات .

قال عليه رحمة الله :

« والمسألة التي يبقى علينا أن نعرفها ، والتي تفرقت المدارس الإسلامية بصددتها بطريقة واضحة ، هي :

عندما يطلب الله منا أن نستخدم قدرتنا على الاختيار ، بعد أن يكون قد وضع رهن تصرفنا هذه الموارد العامة والخاصة - هل يتخلى الله عنا تماماً ؟

ألا يتدخل لمصلحة أي جانب ؟

أو أنه يدخل هنا - دون علم منا - دافعا معيناً ، علوياً ، ومباشراً وفورياً في صورة مساعدة ، أو ترك ، أو دعم ، أو قدر ضئيل من الطاقة ، أو فعل لا يقاوم من باب الفضل أو الابتلاء ، يوجه - على تنوع - مؤشر نشاطنا ويحدد حركته في اتجاه أو آخر ، دون أن نحدس به مطلقاً .

تلکم هي المسألة التي لم يفصح فيها القرآن عن نفسه بطريقة واضحة وكافية ، بل يبدو أنه قد التزم من هذا الجانب نوعاً من الحذر المقصود ذكر له الإجابة فيما بعد :

﴿ قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيَّةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

لقد أعدنا قراءة هذه العبارات عسى أن تكون الأسئلة التي أثارها المؤلف أموراً افتراضية سيقدر جوابها ، أو إشارة إلى آراء المدارس العقلية بقصد حكايتها أو الرد عليها . لكننا فوجئنا بإنهاء قضية هذه الأسئلة نهاية غريبة ، حيث أغلق الباب دون الإجابة عليها ؛ بسبب أن القرآن لم يفصح فيها عن نفسه بطريقة واضحة وكافية .

وهنا تحول الأمر إلى اتهام للقرآن بالغموض ، ولا نخفى أننا حاولنا أن نجد تفسيراً يسوغ عبارة المؤلف ، فلما لم نجد اتجه اتهامنا للترجمة مع ثقتنا في دقة المترجم ، لكن لم تلبث عبارة المؤلف أن استرسلت مرة أخرى ترسخ ذات التهمة مما جعلنا نغنى الترجمة من أى اتهام .

ذلك أن المؤلف اعتبر هذا الغموض نوعاً من الحذر المقصود .

ثم مضى في نفس الطريق متخذاً من إعراض السلف عن البحث في المشيئة الإلهية والقدر من جهة ، ومن التناقض بين العدالة والقدرة الإلهية المطلقة « كذا » من جهة أخرى دليلاً على صمت الوحي وعدم استطاعة حل هذه المشكلة عن طريقه .

ولشد ما كانت الدهشة كيف جرى قلم فضيلة المؤلف ﷺ بهذه العبارات ، اللهم إلا إذا كان يقصد بحث الكيفية التي تعمل بها مشيئة الله في مخلوقاته ، وتلك

لعمري قضية ما يخطر بالبال أبدا أن تكون موضع بحث وتفصيل ؛ لأنها من الحقائق العليا التي تتعلق مباشرة بصفات الله ، وغنى عن البيان أنها أمور لا يستطيع العقل الإنسانى المحدود أن يُستَكَنَّ أسرارها ، ولا أن يحيط بها فهى خارجة عن منطقة عمله ولا تخضع للمجال الذى يملك العقل أن يفكر فيه ، وما نظن أن المؤلف الجليل عليه رحمة الله يحاول أو يقصد أن يخرجها القرآن من نطاق الغيب حتى يتهمه بالغموض المتعمد والحذر المقصود .

أما آثار المشيئة ، وهى مانرجح أن يكون المؤلف يعنيه - إذ لا يعقل أن يعنى غيره - فقد وضح القرآن موقفه منها توضيحا كافيا يدع الذى لا يدركه عرضة لأن يكون تحت العتاب الشديد بمثل قوله تعالى : ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ .

لكن الذى نستكره أشد الاستنكار من العبارات التى نناقشها هو : أسئلة المؤلف التى بدأها بقوله : هل يتخلى الله عنا تماما ؟ وبعد عدة أسئلة أخرى يقول : تلکم هى المسألة التى لم يفصح فيها القرآن عن نفسه بطريقة واضحة وكافية . فهل حقا يشعر قارئ القرآن ببقاء مثل هذا السؤال الخطير فى نفسه دون أن يجد عليه جوابا فيما يقرأ من كتاب الله ؟ ، كتاب الله الذى لا تزال آياته تهتف : ﴿وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ، ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ، ﴿أَنْتُمْ تَرْغَوْنَهُ وَأَمَّنَّ التَّرِيعُونَ﴾ ، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ إلخ .

ولا نذكر من السنة إلا حديثا واحدا كرمز لاتجاه السنة حيث لم يتعرض لها النص الذى نناقشه .

روى الإمام أحمد والإمام مسلم عن ابن عمر مرفوعا قول رسول الله ﷺ : « كل شيء بقدر ، حتى العجز والكيس »^(١) .

(١) أخرجه مالك فى الموطأ فى كتاب القدر ، وأخرجه أحمد فى المسند ج ٢ ص ١١٠ وأخرجه مسلم فى كتاب القدر باب تعريف الله تعالى القلوب .

فهل بعد هذه النصوص – وأمثالها في القرآن والسنة كثير – يجوز أن يثار هذا السؤال : هل يتخلى الله عنا ؟ بل « ويتخلى تمامًا » كما هي عبارة الدكتور ؟ ثم يعقب ذلك بغموض القرآن في الإجابة على هذا السؤال ، والأسئلة الأخرى التي أثارها المؤلف .

ونحن نسأل في النهاية : هل يبقى شيء من الوجود لأي موجود إذا تخلى الله عنه ؟ وهل خرجت مشيئة الإنسان عن دائرة المخلوقات حتى يتخلى عنها خالقها ؟ اللهم فلا تكلنا لأنفسنا طرفة عين ولا أقل منها يا قيوم الوجود يا من لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يؤوده حفظ كل موجود ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وببقى وفاء وإنصافاً أن نسأل الله مزيداً من رحمته الواسعة ورضوانه وعفوه لنا وللعالم الورع التقى الشيخ محمد عبد الله دراز الذى بذل مجهود الأبطال في خدمة القرآن بكتابه المذكور ، لكن الإنسان هو الإنسان ، والكمال لله وحده ، ولا عصمة ولا عصمة إلا لمن عصم الله ، وحيا الله أهل العلم والفضل من الذين ترجموا وأخرجوا الكتاب ، ورجاؤنا في الله أن يوفقهم في طبقات قادمة لإلقاء نظرة فاحصة في هذا السفر الجليل النافع ، ولهم ولنا من الله الأجر والثوبة والتوفيق .

الفصل الخامس

النهى عن الكلام فى القدر

حرص الإسلام على تربية الأفراد والمجتمع والأمة على المحافظة على سلامة عقائدهم وأفكارهم وأوقاتهم ، وجمع ذلك كله فى صرفهم بحسم عن الجدل العقيم ، والكلام البيزنطى السقيم ، وفى مقدمة ما نهى المسلمون عن الجدل فيه ، القضاء والقدر .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩] .

روى الإمام أحمد قال : حدثنا وكيع قال حدثنا سفيان الثورى - بسنده - عن أبى هريرة قال : جاء مشركوا قريش إلى النبى ﷺ يخاصمونهم فى القدر فنزلت : ﴿ يَسْجُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (١٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿ (١) .

وقال البزار : عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : ما نزلت هذه الآيات : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ (١٧) يَوْمَ يُسْجُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (١٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿ إلا فى أهل القدر .

وروى أحمد أن الرسول ﷺ خرج ذات يوم والناس يتكلمون فى القدر ، وكأنها تفقا فى وجهه حب الرمان من الغضب فقال : « وما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ، بهذا هلك من قبلكم » (٢) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال : قيل له أن رجلا قدم علينا يكذب بالقدر ، فقال : دلونى عليه - وهو أعمى - قالوا : وما تصنع به يا أبا عباس ؟ قال :

(١) وهكذا رواه مسلم والترمذى وابن ماجه من حديث وكيع عن سفيان الثورى به .

(٢) أى غضب ﷺ فاحمر وجهه احمرارا يشبه لون عصير حب الرمان .

والذى نفسى بيده ، لئن استمكننت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه ، ولئن وقعت رقبته فى يدى لأدقنها ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كَأْنى بنساء بنى فهر يطفن بالخزرج تصطفق أليآتهن مشركات ، هذا أول شرك هذه الأمة ، والذى نفسى بيده ، ليتتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قَدْر خيرا ، كما أخرجوه من أن يكون قدر شرا » (١) .

وأخرج الإمام أحمد عن نافع قال : كان لابن عمر ؓ صديق من أهل الشام يكتبه ، فكتب إليه عبد الله بن عمر أنه بلغنى أنك تكلمت فى شيء من القدر ، فأياك أن تكتب إلیّ ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون فى أمتى أقوام يكذبون بالقدر » (٢) .

وأخرجه ابن عبد البر فى العلم عن التزال بن سبرة قال : قيل لعلى ؓ يا أمير المؤمنين : إن ههنا قوما يقولون : إن الله لا يعلم ما يكون حتى يكون ، فقال : ثكلتهم أمهاتهم ، من أين قالوا هذا ؟ قيل يتأولون القرآن فى قوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] .

فقال على : من لم يعلم هلك ، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ : تَعْلَمُوا الْعِلْمَ وَاعْمَلُوا بِهِ وَعَلِمُوهُ ، وَمَنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلْيَسْأَلْنِي ، بَلِغْنِي أَنْ قوما يقولون : إن الله لا يعلم ما يكون حتى يكون لقوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ ﴾ .

وإنما قوله : ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ ﴾ : حتى نرى من كتب عليه الجهاد والصبر ، إن جاهد وصبر على ما نابه وأتاه مما قضيت عليه (٣) .

(١) أحمد فى مسنده ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، والحاكم ، وقال الترمذى حسن صحيح غريب .

(٣) كذا فى الكنز ج ١ ص ٢٦٥ كتاب حياة الصحابة ج ٣ ص ٤٠ .

قال ابن كثير : وتفسير العلم بالرؤية ؛ لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود . والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ، وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله : « إلا لنعلم » إلا لنرى ^(١) .

إن هذه النصوص مجتمعة - على تفاوت ما بين أسانيدھا من قوة - تدل على خطورة الكلام في القدر ، كما تدل على تحاشي الصحابة لأولئك الذين يتورطون في هذا النوع من الحديث ، فما أسباب ذلك وما هي أبعاد هذه القضية ؟

لدينا ثلاث ضوابط محددة وواضحة ، وهي مناسبة إذا أحسن الالتزام بها كي تكون في مجالات الدراسة والتعليم أساسا صالحا للكلام عن القدر والمشية ، وضابط واحد رابع في المجال العام وهذه الضوابط ^(٢) :

أ - الالتزام بنصوص القرآن والسنة في معالجة الموضوع مع البعد عن أي تفسير لا يحتمله النص .

ب - الإيمان بالغيب فيما يمس الصفات ، واستعمال آثار المشيئة كوسائل للتوضيح .

ج - الانطلاق من مخالفة عمل المشيئة الإلهية لعمل المشيئة الحادثة امتدادا لقاعدة « المخالفة للحوادث في الذات والصفات » .

د - عدم شغل العامة بهذه الموضوعات ، وعند الحاجة إلى طرقها تؤخذ النصوص القرآنية أو النبوية نتائج مسلمة ، وعلى الجميع أن يتعودوا على الاقتناع بها دون السماح بإثارة جدليات حولها .

(١) تفسير ابن كثير أوائل سورة العنكبوت .

(٢) علاقة هذه الضوابط بالتنمية والإيجابية : هو النهي عن ضياع الوقت فيما لا طائل من ورائه عن سلامة العقيدة .

وواضح أن الضوابط الثلاثة الأولى خاصة بالمجالات المذكورة في المعاهد والجامعات أو الحلقات والندوات والمؤتمرات العلمية ، أو الدورات التدريبية وما يئثل هذه المجالات التى تحكمها لوائح أو قواعد منظمة فى البحث والتلقى والدراسة ، وستناول هذه الضوابط كلا على حدة .

(أ) الالتزام بالقرآن والسنة مع البعد عن أى تعسف فى التأويل :

من المسلم أن هناك موضوعات ليس فى قدرة العقل الإنسانى أن يستقل بمعرفتها فضلا عن تقرير حقائقها وهذا الموضوع الذى بين أيدينا فى الذروة من هذه الموضوعات ؛ لأنه متعلق بالله سبحانه ، وإذا لم يكن منهاج الدراسة مفتتيا أثر القرآن والسنة بدقة ، مع وجود طرائق عقلية غير منضبطة من وضع البشر امتلأت بها ساحات البحث والدراسة فى مجالات ماوراء الطبيعة ، فلا شك حين نفتقد هذا العاصم من الكتاب والسنة أن هذه الطرائق الوضعية ستزحف على أساليبنا فى البحث والدراسة ، والعقل الإنسانى قابل بطبعه للأخذ والعطاء ، وحينها سنضل الطريق الصحيح ، ولن نصل إلى حق أو صواب ، فضلا عن فساد الاعتقاد ، وما يتعرض له المخطئون من سخط نعوذ بالله منه .

والمأمل فى موقف الإسلام هذا ، لا يخالجه الشك أبدا فى أن هذا التوجيه الحاسم كان من معجزات القرآن الكريم ومن معجزات النبى ﷺ ، فمنذ فجر تاريخ الفلسفات الإنسانية حتى يومنا هذا والعقل الإنسانى لا يحسن الوقوف عند الحدود التى لا تطولها قدرته بينما هو يحسن التوقف تماما عند حدوده فى المجالات المادية ، ولهذا كان عقيا ومتناقضا فى الأولى ، ومنتجا ودقيقا فى الأخيرة .

هذا هو سر فشله فى العلوم الفلسفية سواء كانت ميتافيزيقية أم أخلاقية أم تشريعية . وهذا فى الوقت نفسه سر نجاحه فى العلوم التجريبية والمادية التى عرف كيف يطبق منهاج العقل السليم فيها ؛ لأنها هى المجال الطبيعى الذى يصلح لعمله .

وكانت النتيجة الحتمية هذا التفاوت المذهل بين تطور العلوم المادية وجود وتجر العلوم الفلسفية حتى أدرك الجميع - وفي مقدمتهم فلاسفة الغرب نفسه - أن عضلات العالم اليوم أقوى كثيراً من عقله وأخلاقه ، ولا علاج لهذه الظاهرة إلا بالعودة إلى منهاج الإسلام قرآنا وسنة ، والتزام بنصوص الوحي فيما لا يستطيع العقل الاستقلال بإداركه من علوم وفي مقدمتها علوم الاعتقاد والتشريع .

على أن الالتزام بنصوص الوحي يحكمه ضابط آخر هو التحفظ الشديد في معرفة المقصود الحقيقي لهذه النصوص حتى لا تقع فيما وقع فيه بالجهل أولئك الذين حكى لنا قصتهم الآثار المروية عن الإمام على كرم الله وجهه أو عن ابن عباس حين التبس عليهم فهم قوله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ ، فقالوا قولتهم السيئة : « إن الله لا يعلم ما يكون حتى يكون » ، فردهم على بن أبي طالب إلى الصواب حين أفهمهم أن المقصود بالعلم هنا هو العلم الناتج عن الرؤية أى حتى نرى كما سبق بيانه .

ولعله يتضح لنا من النصوص التى أوردناها بهذا الخصوص سر من أسرار عظمة الإسلام حين نجد هذا الفقه معمولاً به ومتعارفاً عليه بين كبار الصحابة كعرف سائد في مجتمعاتهم ، بمعنى أن الرسول ﷺ ألح بهذه الحقيقة على أصحابه حتى أصبحت جزءاً أصيلاً من معلوماتهم بحيث لم يتجاوزوه أحد حتى في أواخر عهد الصحابة من أمثال ابن عباس وابن عمر . بل كانوا يدافعون عن هذا المنهاج أيما دفاع ، فابن عباس وهو الذى كف بصره ، يريد أن يدافع بيديه وأسنانه عن منهاج الالتزام بنصوص الوحي ، وابن عمر يقاطع الصديق ويكتب إليه بذلك .

ب- الإيمان بالغيب والاستعانة بالآثار كوسيلة للتوضيح :

الإيمان بالغيب كما ورد : هو المنهاج العملى الدقيق والصحيح بكل ما تحمله هذه الكلمات من معان .

وتفصيل ذلك مع مراعاة الإيجاز : أن العقل الإنسانى نعمة من الله خلقها فى الإنسان كما خلق له بصرا وسمعا وشما وذوقا ومع التغيرات فى الخصائص والوظائف لهذه النعم فهى جميعا مخلوقة محدودة يحكمها الحدوث بمجالاته المحدودة . وإذا كانت قدرة العين أن تبصر الشيء بوضوح على مسافة معينة فإنها لن تستطيع بعد هذه المسافة أن تميز الأشياء بوضوح ، وبُعْدٍ آخر ستختفى صور الأشياء الصغيرة وتتلاشى من العين .

وللعقل مجال يعمل فيه ما ينبغى أن يتخطاه ، ومجال العقل فسيح جدا فهو يعمل عملا سليما ومتجا فى أية زاوية من زوايا الكون حين يستكمل لنفسه وسائل البحث والدرس ، ومن هنا كانت آثار القدرة الإلهية مثلا موضوعا لعمل العقل فإذا ما اتصل الأمر بالغيب فقد العقل كل صلاحياته وأصبح عمله مجرد ظنون وأوهام لا تغنى من الحق شيئا ، فإذا تعلق الأمر بذات الله وصفاته انتهى الأمر تماما بالنسبة لصلاحيات العقل حيث تصبح مجرد الظنون والأوهام ضربا من التصور الكاذب المخالف للحقيقة بكل يقين .

وهنا لا يملك العقل إلا وسيلة الإتيان بالغيب لتكون النافذة التى يطل منها على الحقيقة دون محاولة منه للتدخل فى قليل أو كثير .

لذلك نستطيع الاعتماد على أمرين اثنين فيما يتعلق بالكلام فى المشيئة والقدر :

أولهما : الوحي « القرآن والسنة » ، كما سبق بيانه فى الضابط الأول .

وثانيهما : آثار المشيئة فى الخلق وفى مشيئة الإنسان وعمله .

ومن هذين الأمرين تتكون معارفنا فى حدود ما أمر الله به من عقيدة تتصف بصفتين ، أنها ترضى الله سبحانه ، وأنها مطابقة للحق والصواب وهذا مبتغى ما يصل إليه الإنسان .

وقبل أن تنتقل إلى النقطة التالية نود أن نؤكد ، أن أسلوب الفلاسفة - الذى لا يحسن وضع ضوابط للعقل ، بل يسمح له بالشتات فى مجال غير منتج - أسلوب غير علمى ؛ لأنهم يستعملون الأداة فى غير موضعها مثلهم كمثل الذى يحاول أن يرى بعينه المجردة ما لا يمكن أن تراه من أبعاد ، أو كربان سفينة حولتها ألف طن فأصر على تحميلها عشرة آلاف أو عشرة ملايين من الأطنان ، وإذن فالمنهاج الإسلامى يتفق مع المنهاج العلمى الصحيح ، بينما فقد واضعوا النظريات الفلسفية هذا الميزان .

وعلى ضوء هذا البيان يمكننا أن نتأمل بعض الحكمة على قدر ما تتفتح لها قلوبنا وعقلولنا من جعل الإيمان بالغيب أول وصف من أوصاف المتقين فى أول سورة بعد فاتحة الكتاب .

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٧٧) .

[البقرة: ١-٣]

جـ - مخالفة الحوادث :

« مخالفة الله سبحانه للحوادث فى ذاته وصفاته » من أهم المنطلقات الصحيحة التى تعين على تجنب الخلط واللبس فى قضية المشيئة ، وهى تقطع الطريق كلياً على الذين يتورطون بالقول فى القدر والمشيئة ، إذ كيف يتم عقد مقارنة عن طريق المواجهة بين مشيئة حادثة مخلوقة منحت بعض الإمكانيات المحدودة وبين مشيئة قديمة لا أول لوجودها ولا حدود لإمكاناتها وهى المانحة والخالقة والمعطية ؟ وما معنى عدم المماثلة للحوادث إذا أمكن حدوث المزاومة بين المشيئة الخالقة والمشيئة المخلوقة ؟ أى هل يتصور أن تصطرع المشيئتان كما يصطرع مشيئتان حادثتان ، فأيهما كانت الأقوى كان لها الفوز والغلبة ؟

وإذا كان الجواب بالنفى - وهو حتماً كذلك - فعلى أى أساس إذن كانت شبهة الجبر والاختيار وهى خلاصة المحك فى قضية القدر والمشيئة ؟

إن وجود هذه القضية من الأساس لا مسوغ له البتة إذا نحن أحسننا الانطلاق من هذا المنطلق ، أعنى منطلق المخالفة للحوادث .

ولننظر في آثار المشيئة الإلهية وهي - أي الآثار - ما نملك النظر فيه بلا تحفظات أو قيود ، ولننظر قبل ذلك في آثار مشيئتنا لنرى أي خداع وأي غرور قد انطليا على المتكلمين في القدر والمشيئة .

إننا حين ننظر في مشيئتنا وفي حدود صلاحياتها ندرك بسهولة وبسرعة أن أي تجاوز منا لحدود هذه الصلاحيات يوقف مشيئتنا حائرة عاجزة ، فإذا نحن تأملنا بعض آثار المشيئة العليا سطع نور الحق في قلوبنا واستنارت بصائرنا باليقين ، ولن يبقى فينا فراغ يتسع لشبهة من هذا القبيل .

خذ من الكون الواسع الممتد الذي تهيمن عليه مشيئة الله سبحانه مثالا ، المثال الذي سنأخذه صغير جدا بالنسبة إلى سعة الكون ، إنه هباء اسمها : الأرض ، وخذ من فوق هذه الهباء ذرات تعيش على سطح قشرتها مبعثرة تسمى : بعوالم الحيوان ، وخذ من هذه العوالم واحدا منها اسمه الإنسان . ودعك من عوالم الحيوان كلها واقتصر على الإنسان وحده ، ولتأمل بعض آثار المشيئة الربانية فيه :

وهبته الوجود والحياة ، عقله ، سمعه ، بصره ، شمه ، ذوقه ، إحساسه ، قلبه ، تنفسه ، غذاءه ، شرابه ، بيانه ، علمه ، دينه ، أخلاقه ، كماله ، هدايه ، مشيئته ، اختياره ، وغيره وغيره مما لا يدخل تحت حصر : ﴿وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] .

ويقدر الله لخلقه من هذه النعم الكثيرة الزاخرة ما يشاء ، لكل إنسان رزقه ، لا يشغله حال عن حال ، ولا أحد عن أحد كل نفس على حدة لها مع المشيئة شأن : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] .

مشيئة لا يحكمها الزمان والمكان ، بل هي تحكمهما وغيرهما في شمول وتفصيل

وحكمة : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

في الآيتين الأخيرتين اللتين استشهدنا بهما عموم يشمل الإنسان وغيره ، فلنذكر أننا لا نتكلم عن عمل المشيئة في الكون كله ، وإنما أخذنا من الكون هباءة ، وأخذنا منها ذرات تعيش على قشرتها ، وتركنا الكثير الكاثر منها لنجتريء بأنفسنا ، وحتى عن أنفسنا اكتفين بالقليل من آثار المشيئة فينا ؛ لأن الكثير لا يمكن حصره وإحصاؤه ، ولم نذكر من هذا القليل إلا رمزه وعنوانه ، فما بالتنا إذا تصورنا - ونحن عاجزون عن ذلك - آثار المشيئة في الكون كله . ليس أمامنا إلا أن نسجد لله قائلين : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

إنه لا يمكن أن نقول بعد ذلك أمام هذه المشيئة المطلقة الكاملة الشاملة شيئا ما ، عن مشيئة هذه الذرات المبعثرة فوق قشرة هباءة لا نسبة بين صغرها وبين عظمة هذا الوجود . ولعلنا بعد نظرنا في هذه الآثار نستطيع الحكم باستحالة التجانس في أسلوب التأثير والعمل بين المشيئة اللامحدودة ، وبين مشيئة ذرة عاجزة ، ومعروف أن المقارنة لا تتم إلا بين نظيرين أو متجانسين . فهل يبقى بعد ذلك تصور صراع بين المشيئتين حتى يتفرع عن هذا التصور مشاكل فكرية حول القدر والمشيئة أو حوار يدور حول الجبر والاختيار .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَاعَزَكُمُ الْكَرِيمُ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ قَعَدَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ

رَبِّكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨] .

هذه الضوابط الثلاثة هي :

- الالتزام بنصوص القرآن والسنة .
- والإيمان بالغيب مع حرية النظر في عالم الشهادة^(١) .
- والفهم الدقيق « لمخالفة الله الحوادث ذاتا وصفات » .

(١) عالم الشهادة يقابل عالم الغيب الذي يمكن إدراكه بالحواس .

تسمح بالكلام في القدر والمشئنة في إطار التعليم والدراسة ، وفي غير هذا الإطار لابد من صرف العامة عن الانشغال بأي حوار من هذا القبيل ، وهذا هو التحفظ الرابع أو الضابط الذى مضى عليه السلف بيقظة وحسم ، فللعقول طاقاتها ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم أصل مرعى إذا أردنا الخير للناس .

وأى خروج عن هذه الضوابط سواء فى المستوى الخاص أو العالم يعرض أهله لتكذب الصراط المستقيم ويفضى بهم إلى مالا تحمد عقباه .

وما كان ينقص فرق الاعتزال أو القائلين بالجبر أو الاختيار المطلق أو المقيد علم أو فكر ولكن كان ينقصهم الالتزام بالقواعد التى بينها كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

وبعد ، فهذا نموذج قصير وموجز يعطينا فكرة حسنة عن التفكير السلفى الهادئ حين يكون ملتزما فى مناقشته لهذه القضية ، نورده بعبارة الإمام النووى فيما يلى ، يقول ﷺ : « وأما قوله ﷺ : « والشر ليس إليك » .

فاعلم أن مذهب أهل الحق من المحدثين والفقهاء والمتكلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء المسلمين أن جميع الكائنات خيرها وشرها ، ونفعها وضررها كلها من الله سبحانه وتعالى وإيرادته وتقديره .

وإذا ثبت هذا فلا بد من تأويل هذا الحديث فذكر العلماء فيه أجوبة :

أحدها : وهو أشهرها قاله النضير بن شميل والأئمة بعده .

معناه : والشر لا يتقرب به إليك .

والثانى : لا يصعد إليك إنما يصعد الكلم الطيب .

والثالث : لا يضاف إليك أدبا فلا يقال يا خالق الشر كما لا يقال يا خالق الخنازير وإن كان خالقها .

والرابع : ليس شرا بالنسبة إلى حكمتك فإنك لا تخلق شيئا عبثا والله أعلم ^(١) .